الاتساق والانسجام بين اللسانيات النصية والتراث العربي القديم
_ كتاب نقد الشعر أنموذجا_

The Choesion and Coherence between textual linguistics and ancient Arabic heritage
_ Book of Poetry Criticism as an Example _

ط.د/ ناصر موسى
الأستاذ الدكتور: عبد اللطيف حني

قسم اللغة العربية وآدابها-جامعة الشاذلي بن جديد-الطارف(الجزائر)
مخبر التراث والدراسات اللسانية: جامعة الطارف.
Moussanacer87@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2020/10/01 تاريخ القبول: 2020/12/13 تاريخ القبول: 2021/03/15

ملخص:

عرف علم اللغة انفتاحا واسعا على مختلف المجالات، الأمر الذي أسفر عنه ظهور عدة علوم من أهمها: علم اللغة الجغرافي، علم اللغة النفسي، علم لغة النص؛ هذا الأخير الذي يهتم علماؤه بمجموعة من المعايير، أبرزها: الاتساق والانسجام.

وبالعودة إلى التراث العربي القديم نجد أن مؤلفات علماء العرب القدامى قد تضمنت بطريقة مباشرة أو غير مباشرة معايير النصية التي ترتكز عليها لسانيات النص، وبما أن كتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر من المؤلفات التي تناولت النصوص الشعرية وبينت جيدها من رديئها؛ فقد رأينا أن نبحث فيه عن مظاهر الاتساق والانسجام.

الكلمات المفتاحية: لسانيات النص، معايير النصية، التراث، الاتساق، الانسجام، النقد.

***Abstract*:** Linguistics knew a wide openness on various fields, which resulted in the emergence of several sciences, the most important are: geographical linguistics, psycholinguistics, and text linguistics whose scholars are interested in a set of criteria, most notably: Choesion and Coherence.

Going back to the ancient Arab heritage, we find that the books of ancient Arab scholars have included, directly or indirectly, the textual criteria that underpin the text linguistics , and since the book Criticism of Poetry by Qoudama bin Jaafar dealt with poetic texts and showed its good from its badness, we have chosen to take it as a corpus to explire the aspects of Choesion and Coherence.

Keywords: text linguistics, textual criteria, heritage, Choesion, Coherence, criticism

تمهيد:

كانت اللّسانيات في النّصف الأوّل من القرن العشرين لا تخرج في دراسة اللّغة عن نطاق الجملة الواحدة، إلى أن تفطّن العالم الأمريكي "زليغ هاريس Zellig Harris" (1909) إلى وجود علاقات بين الجمل يمكن من خلالها الانتقال في الدّراسة والتّحليل إلى بنية أكبر من الجملة؛ وهو ما دعا إليه في مقاله الموسوم بـ"تحليل الخطاب" الصّادر سنة 1952م، والذي توالت بعده الدّراسات والأبحاث فيما عُرف بعد ذلك بـ"علم لغة النّص" أو "لسانيات النّص"؛ حيث نشر العالمان "مايكل هاليداي Michael Halliday" (1925) ورقية حسن" Ruqaiya) (Hasan سنة 1976م كتابا بعنوان "الاتّساق في الإنجليزية"، وفي سنة 1977م ربط "تون فان دايك"(Teun A Van Dijk) النّص بالبيئة الخارجية التي نشأ فيها في كتابه "النّص والسياق"، ثم تضافرت جهود العالمين: "روبيرت دي بوغراند Robert de Beaugrande" و"وولفغانغ دريسلر.Wolfgang U " Dresslerلينشرا كتابا بعنوان "مدخل إلى لسانيات النّص" ناقشا فيه معالم النّصية والمعايير التي يقوم عليها النّص بطريقة مفصّلة، ليصبح النّص – بعد هذه النّهضة- وحدة متكاملة بعد أن كان يُنظر إليه على أنّه مجموعة جمل لا أكثر، ويصبح بذلك موضوعا لعلم قائم بذاته هو علم لغة النّص.

إنّ هذا الاهتمام الذي أحاط به علماء اللّغة الغربيون النّصَّ في العصر الحديث، نجده عند العرب قديما قدم النّص القرآني والأحاديث النبويّة -اللّذين ارتبطت أولى الدّراسات اللّغوية عند العرب بهما، كما لا يحيل مصطلح "النّص" في التّراث العربي العربي إلا عليهما-

ويُعتبر التّفكير النّصي أو النّظر في اللّغة نظرا يتجاوز الجملة الواحدة منهجا متجذّرا في التّراث؛ فقد كان منهج دارسي القرآن والأحاديث النبوية أوّل الأمر، ثمّ منهج البلاغيين والنقّاد بعد ذلك.

مما سبق نجد أنفسنا أمام إشكالية رئيسة مفادها: مامدى حضور مظاهر الاتساق والانسجام في كتاب نقد الشعر؟

والتي تتفرع بدورها إلى عدد من التساؤلات، أهمها:

- مامفهوم لسانيات النص؟
- ماهي معايير النصية؟
- ماهي أهم مظاهر الاتساق والانسجام في كتاب نقد الشعر؟

أولا: مفهوم لسانيات النص:

يعرّف "صبحي إبراهيم الفقّي" "لسانيات النص" أو "علم لغة النص" بقوله:« هو فرع من فروع علم اللّغة، يدرس النّصوص المنطوقة أو المكتوبة، هذه الدّراسة تؤكد الطّريقة التي تنتظم بها أجزاء النّص، وترتبط فيما بينها لتخبر عن الكلّ المفيد »[1]. فعلم النّص أو علم لغة النّص هو العلم الذي اتّخذ من النّصوص موضوعا له، وتناولها بالدّراسة والتّحليل للكشف عن أسرار تماسك أجزائها وانتظامها.

1/ معايير النصية:

تشتغل النصية على تحديد الطريقة التي ينسجم بها المنجز اللغوي شفويا كان أو مكتوبا، وقد تكلّم "دي بوغراند" عن النّصية وكان من الأوائل الذين حدّدوا بدقّة المعايير التي تقوم عليها حيث يقول: « وأنا أقترح المعايير التّالية لجعل النّصية "Textuality" أساسا مشروعا لإيجاد النّصوص واستعمالها:

- السّبك Choesion
- الالتحام Coherence
- القصد Intentionalty
- القبول Acceptability
- رعاية الموقف Situationality
- التّناص Intertextuality
- الإعلامية Informativity »[2].

فالنّصية عند "روبيرت دي بوغراند" لا تتحقّق إلا من خلال هذه المعايير السّبعة مجتمعة مع بعضها، وبهذه المعايير تتميّز النّصوص عن غيرها من التّشكيلات اللّغوية، وقد ترد هذه المعايير عند علماء آخرين بتسميات مختلفة لكنّ المعنى واحد.

ثانيا: مظاهر الاتساق في كتاب نقد الشعر:

تمثلت أهم مظاهر الاتساق في كتاب "نقد الشعر" لقدامي بن جعفر[*1] فيما يلي:

1/ المبالغة: وهي: « أن يذكر الشّاعر حالا من الأحوال في شعره لو وقف عليها لأجزاه ذلك في الغرض الذي قصده، فلا يقف حتّى يزيد في معنى ما ذكره من تلك الحال ما يكون أبلغ فيما قصد »[3]؛ أي أنّ الشّاعر يضيف عناصر معجميّة (مفردات)، وإن كان قد وصل إلى الغرض الذي يقصده دون إضافتها، فهو يكرّر ألفاظا قد ذكرها، أو يأتي بما يرادفها في المعنى حتّى يزيد المعنى الذي أراده قوة وبلاغة، ومثال ذلك قول عمير بن أيهم التّغلبي:

ونكرمُ جارنَا ما دامَ فينَا ... ونتبعهُ الكرامةَ حيثُ سَارا[4]

ويقول "قدامة" معلّقا على هذا البيت: « فإكرامهم للجار، ما دام فيهم، من الأخلاق الجميلة الموصوفة، وإتباعهم إيّاه الكرامة حيث كان من المبالغة في الجميل »[5]، فالمبالغة في ذكر الكرم زادت المعني الذي أراده الشّاعر قوة وجودة، في حين أن تكرار لفظ "الكرم" في قوله "نكرم...الكرامة" بيّن التّرابط بين شطري البيت

* يعتبر كتاب "نقد الشّعر" للنّاقد البصري قدامة بن جعفر المتوفّى سنة 337هـ أصلا لجميع الدّراسات النّقدية التي جاءت بعده، وتعود أهمية هذا الكتاب إلى المنهج العلمي الذي انتهجه صاحبه في نقد الشّعر وتخليص جيّده من رديئه، وطريقة بناء أحكامه وأرائه، حيث يقول: « فلنذكر صفات الشّعر الذي إذا ما اجتمعت فيه كان غاية في الجودة »، وهذا قول يصرّح فيه قدامة بن جعفر أنّ الكتاب سيضمّ المعايير أو القواعد التي يجب الوقوف عندها أثناء الحكم على النّصوص الشّعرية بالجودة أو الرداءة، كما أن الشّاعر يمكنه الرّجوع إليها قبل أن يؤلّف شعره. وقد قال فيه محمد زغلول:"إن قدامة بن جعفر في كتاب نقد الشعر حاول أن ينظم بحوث النقد، وقد أوتي من المقدرة على على الترتيب ورسم منهج متكامل ساعده عليه اشتغاله بالمنطق والحساب".

وعليه؛ فالمبالغة التي أوردها "قدامة بن جعفر" للدّلالة على زيادة في المعنى وتوكيد الغرض المقصود، قد أسهمت في تحقيق الرّبط المعجمي، ذلك أنّ المبالغة تكون بتكرار اللّفظ أو الإتيان بمرادفه أو ما يشبهه في المعنى وهي العناصر التي يتحقّق من خلالها تماسك أجزاء النّص، وهي تقابل التكرار والتضام في علم لغة النّص عند المحدثين؛ حيث: «يُعرّف الأوّل(التكرار) بأنّه إعادة عنصر معجمي أو مرادفه، أو شبيهه، أو عنصر عامّ يشمله، ويعرّف الثّاني(التضّام) بأنّه توارد زوج من الكلمات بالفعل أو بالقوة لارتباطهما بحكم علاقة ما »[6].

2/ التّكافؤ: وهو: « أن يصف الشّاعر شيئا ويذمّه ويتكلّم فيه بمعنى ما، أي معنى كان، فيأتي بمعنيين متكافئين، والذي أريد بقولي "متكافئين " في هذا الموضع، أي متقابلين إمّا من جهة المصادرة أو السّلب والإيجاب أو غيرهما من أقسام التّقابل »[7]، فالتّكافؤ عند "قدامة بن جعفر" هو أن يأتي الشّاعر باللّفظ في الشّعر ثم يأتي بما يقابله في المعنى، ومثال ذلك: «قول الشّاعر ابن الشّعب العبسي:

حلوُ الشّمائِل، وهوَ مرٌّ باسلٌ ... يحمِي الذمارَ صبيحةَ الأرهان

فقوله "حلو" و"مر" تكافؤ »[8]، ويتحقّق الرّبط المعجمي عن طريق التّكافؤ، إذا ما ذكر اللّفظ في أول البيت وذكره ما يقابله في أخره، ومثال ذلك قول زهير: «

حلماءُ في النادِي إذا ما جئتهمْ ... جهلاءُ يومَ عجاجةٍ ولقاءِ

فقوله "حلماء، جهلاء" تكافؤ »[9]، فظهور اللّفظين المتكافئين في مواضع مختلفة من القصيدة يخلق تماسكا وترابطا فيها، حيث يتمكّن القارئ من إدراك هذا التّماسك من خلال إدراكه العلاقة التي تجمع بين اللّفظين المتقابلين أو المتكافئين.

يمكن القول بناءً على ما سبق: إن الرّبط المعجمي الذي يقوم عند المحدثين على التّكرار والتّضام، يتجسّد في كتاب "نقد الشّعر" من خلال المبالغة والتّكافؤ، كما أن قدامة بن جعفر اعتبرهما من محاسن الشّعر ونعوته.

3/ الإشارة: وهي كما يقول قدامة بن جعفر:« أن يكون اللّفظ القليل مشتملا على معان كثيرة بإيماء إليها أو لمحة تدلّ عليها، كما قال بعضهم وقد وصف البلاغة فقال: "هي لمحة دالة "»[10]؛ فالإشارة أن يحيل اللّفظ الواحد على المعاني العديدة، وهذا التّعريف لا يبتعد عن

مفهوم الإحالة في علم لغة النّص، وإن كانت الإحالة حديثا تعتمد على الألفاظ الإشاريّة والضمائر. ومن أمثلة الإشارة« قول امرئ القيس:

فإنْ تهلكْ شنوءةُ أو تبدّلْ ... فسيري إن في غسّانَ خَالا
بعزهمُ عززتِ وإن يذلُّوا ... فذلهمُ أنالكِ ما أنالا

فبنية هذا الشّعر على أنّ ألفاظه، مع قصرها، قد أشير بها إلى معان طوال، فمن ذلك قوله: تهلك أو تبدّل، ومنه قوله: إن في غسّان خالا، ومنه ما تحته معان كثيرة وشرح طويل، وهو قوله: أنالك ما أنالا »[11]، فقدامة بن جعفر يبيّن بقوله:" أشير بها إلى معاني كثيرة" أن الألفاظ التي أشار إليها في شرحه تحيل القارئ إلى معاني خارجة عن النّص، فقوله " شنوءة" إشارة إلى قوم من العرب ذكرهم "القلقشندي" في كتاب " نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب" بقوله: « بنو شنوءة ، ويقال: شنوءة باسم أبيهم وهم بطن من الأزد، من القحطانيّة، وهم بنو نصر بن الأزد »[12].

فالشّاعر باعتماده ظاهرة الإشارة قد نقل القارئ من النّص إلى البحث عمّا يحيل عليه اللّفظ، وهذا ما تكلّم عنه العالمان "براون" و"يول" في تعريف الإحالة: « العلاقة القائمة بين الأسماء والمسميات هي علاقة إحالة، فالأسماء تحيل إلى المسميات »[13]؛ وقد عملت هذه الإشارة على ربط النّص بالسّياق الخارجي وذلك بإحالة اللّفظ الذي ذكره الشّاعر على القوم الذين هم جزء من السّياق، كما أشار الشّاعر في القصيدة ذاتها إلى قوم الأزد حيث قال: «

وأزد شنوءة الأبطال أرخوا لنا ... في العيش أهون اختيالا
فإن يك دار أهل الأزد زالتّ ... فكل الناس ينتظر الزوالا

فإن تهلك شنوءة في كسيري ... فإن هناك في غسان خالا »[14].

يمكن للباحث أن يرى أن الأبيات الثلاثة اشتركت في الإشارة إلى مرجع واحد خارج عن لغة النص ونسقه، وعليه فالإشارة عند قدامة بن جعفر قديما هي ما يدل عليه مفهوم الإحالة في اللسانيات النصية حديثا، وهي من العناصرالتي تحقّق تماسك الأبيات وارتباطها.

4/ التّمثيل: وهو: « أن يريد الشّاعر الإشارة إلى معنى فيضع كلاماً يدّل على معنى آخر، وذلك المعنى الآخر والكلام منبئان عما أراد أن يشير إليه »[15]، والتّمثيل عند عبد القاهر الجرجاني هو: « التّشبيه الذي هو أولى أن يسمى تمثيلا، لبعده عن التّشبيه الظّاهر الصريح، ما نجده لا

يحصل لك إلا من جملة من الكلام أو جملتين أو أكثر»[16]، فالتّمثيل يعمل على ربط الجمل المكونة للنّص، وهو يختلف عن التشبيه العادب في كونه لا يتحقّق إلا من خلال مجموعة من الجمل، ومن الأمثلة التي ساقها قدامة بن جعفر:« ومثله قول الشّاعر الكلابي

دع الشّر واحلل بالنحاة تعزلا ... إذا هو لم يصبغك في الشّر صابغ

ولكن إذا ما الشّر ثار دفينه ... عليك فأنضج منه ما أنت دابغ

فأكثر اللّفظ والمعنى في هذين البيتين جار على سبيل التّمثيل، وقد كان يجوز أن يقال مكان ما قيل فيه: دع الشّر ما لم تنشب فيه، فإذا نشبت فيه فبالغ، ولكن لم يكن لذلك من الحظّ في الكلام الشّعري والتّمثيل الظّريف ما لقول الكلابي »[17]، والملاحظ في البيتين؛ أنّه لا يمكن فهم المقصود منهما إذا كانا منفصلين، وذلك ما يستدعيه التّمثيل، حيث ينتشر المعنى في أكثر من جملة، وبهذا يعتبر التّمثيل من الظّواهر التي يتحقّق من خلالها الاتّساق وهو يقابل الربط بين القضايا في اللسانيات النصية الحديثة.

إضافة إلى العنصرين السّابقين (الإشارة والتّمثيل)، تكلّم "قدامة بن جعفر" عن العلاقات النّحويّة التي تحكم النّص ، وإن لم يرفق كلامه بأمثلة، حيث قال في باب "نعت ائتلاف اللّفظ مع الوزن": « وأن تكون أوضاع الأسماء والأفعال المؤلّفة منها، وهي الأقوال، على ترتيب ونظام لم يضطرّ الوزن إلى تأخير ما يجب تقديمه، ولا إلى تقديم ما يجب تأخيره منها، ولا اضطرّ أيضاً إلى إضافة لفظة أخرى يلتبس المعنى بها، بل يكون الموصوف مقدّماً والصفة مقولة عليه، وغير ذلك ممّا لو ذهبنا إلى شرحه لاحتجنا إلى إثبات كثير من صناعتي المنطق والنّحو في هذا الكتاب »[18]، فقدامة بهذا القول يشير إلى دراسة نصيّة منظّمة، وذلك أنه قال" وهي الأقوال على ترتيب ونظام" والتّرتيب والنّظام لا يكون في الكلام المتفرق، إنما في النّصوص المنظمة والمتتاليات الجمليّة، وقد بات الربط النحوي اليوم عنصرا من العناصر الأساسية التي تقوم عليها لسانيات النص.

كما أشار "قدامة" إلى ظاهرة الحذف في قوله: « ومن هذا الباب أيضاً ألّا يكون الوزن قد اضطرّ إلى إدخال معنى ليس الغرض في الشّعر محتاجاً إليه، حتّى أنّه إذا حذف لم تنقص الدّلالة لحذفه، أو اسقاط معنى لا يتمّ الغرض المقصود إلا به، حتّى إن فقده قد أثّر في الشّعر تأثيراً بان موقعه»[19]، وبهذا القول يريد قدامة أن يبيّن للقارئ أنّ من الحذف ما يخلّ بالمعنى ويفسد الشّعر وهو حذف غير مرغوب به، ومنه ما يقع دون أي ينقص من الشّعر معنى ولا

يفسد غرضا وهو الذي يعتبره قدامة حسنا مقبولا، والحذف[20] من الأسس التي يبنى عليها الاتساق في لسانيات النص الحديثة.

5/ الوزن: يقول "قدامة بن جعفر" إن من نعوت الوزن: «أن يكون سهل العروض»[21]، والعروض هو موسيقى الشّعر وميزانه، أو هو: « العلم الذي يُعرف به مكسور الشّعر من موزونه »[22]، فالقارئ يمكن له أن يدرك مدى تماسك الأبيات في القصيدة من خلال معرفة الوزن الذي تسير وفقه، وهذا ما أشار إليه قدامة بقوله: «ومن عيوب الوزن: الخروج عن العروض(...) وهو أن يكون قبيح الوزن قد أفرط قائله في تزحيفه، وجعل ذلك بنية للشّعر كلّه، حتّى ميله إلى الانكسار، وأخرجه عن باب الشّعر الذي يعرف السّامع له صحّة وزنه في أول وهلة، إلى ما ينكره»[23]، فهو بهذا يريد أنّ السّامع يدرك تماسك الأبيات، وأنها من القصيدة ذاتها، إذا لم يحد الشّاعر عن الوزن الذي بدا به.

ومن الشّعر المستحسن وزنه عند قدامة:

فإذا سكِرْتُ فَإنَّني ... رَبُّ الخَوَرْنقِ والسّدِير

/0//0/ //0//0 /0/ 0//0// 0/// 0///

وإذَا صحَوْتُ فَإنَّني ... ربُّ الشّوَيْهَة والبَعِيرِ[24]

/0//0/ //0//0 /0/ 0//0// 0/// 0///

فالبيتان سارا وفق وزن واحد دون أن يخرجا عنه، فنشأت بذلك علاقة تجمع الأبيات، يمكن للسّامع ادراكها.

6/ التّرصيع: جعل "قدامة بن جعفر" التّرصيع من صفات الوزن التي تزيد من جودة الشّعر، حيث يقول: « وهو أن يُتوخّى فيه تصيير مقاطع الأجزاء في البيت على سجع أو شبيه به أو من جنس واحد في التّصريف »[25]، فالتّرصيع ضرب من السّجع، إلا أنّه يختلف عنه في كون الأوّل سجع في أكثر من لفظ، وكونه يمسّ الوزن الصّرفي للّفظ، وبذلك هو أكثر دلالة على الرّبط بين أجزاء النّص.

ومن الأمثلة التي توضّح التّماسك الذي يحقّقه التّرصيع في الشّعر؛ قول أبي صخر الهذلي: «

وتلك هَيْكَلَةٌ خَوْدٌ مُبَتَّلةٌ ... صفْرَاءُ رَعْبَلَةٌ في مَنْصِبٍ سَنِمِ

عذْبٌ مُقْبَّلُهَا جَدْلٌ مُخَلْخَلُهَا ... كالدِّعْصِ أَسْفَلُهَا مخْصُورةُ الْقَدمِ

سُودٌ ذَوَائبُهَا بِيضٌ تَرَائبُهَا ... محْضٌ ضَرَائبُهَا صِيغَتْ عَلَى الْكَرمِ »[26].

وفي تعليقه على هذا الشّعر قال "قدامة": « منهم أبو صخر فقد أتى من ذلك بما يكاد لجودته أن يقال فيه أنه غير متكلّف »[27]، ذلك أنّ قدامة يرى أنّ التّرصيع يزيد الشّعر جودة وحسنا، أمّا من منظور علم لغة النّص فقد أسهم التّرصيع في ربط أجزء البيت الواحد، وكذا ربط أبيات القصيدة، من خلال خلق إيقاع صوتي اشتركت في الأبيات

فالتّرصيع أو السّجع الذي انتشر في أبيات القصيدة جعلها تشترك في نظام صوتي يبيّن للقارئ مدى ترابطها وتماسك أجزائها.

7/ القافية: قبل التّطرق إلى ما أورد "قدامة" من نعوت القوافي، لا بدّ من معرفة المقصود بالقافية، فهي: « وزن إيقاعي ناتج عن التزام مجموعة من الحروف والحركات في آخر البيت الشّعري، حدّده "الخليل بن أحمد الفراهيدي" من أوّل متحرك قبل ساكنين في آخر البيت »[28]، وتدخل القافية ضمن وسائل الرّبط الصّوتي كونها توحّد أبيات القصيدة كلّها، وهو ما أشار إليه "رزيق بوزغاية" في قوله: « فإن وظيفة الرّبط التي يؤديها السّجع في المقامات والخطب المسجوعة، والوزن والقافية في الشّعر ظاهرة بشكل جليّ »[29]. فالقافية من أبرز مظاهر التّماسك في الشّعر.

ومن نعوت القوافي: « أن تكون عذبة الحرف سلسة المخرج وأن تقصد لتصيير المصراع الأوّل من البيت الأوّل في القصيدة مثل قافيتها»[30]، وهو ما يعرف **بالتّصريع**، ومن أمثلة ذلك قول امرئ القيس:«

قِفَا نَبْكِ من ذِكْرَى حَبيبٍ وَمَنْزِلِ.... بِسقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُول فَحَوْمَلِ

ثمّ أتى بعد هذا البيت بأبيات، فقال:

أفَاطِمَ مَهْلاً بَعْضَ هذَا التّدَلُّلِ ... وَإِنْ كُنْتِ قَدْ أَزْمَعْتِ صُرْمِى فَأَجْمَلِي

ثمّ أتى بأبيات بعد هذا البيت، فقال:

ألا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ ألا انْجَلِي ... بِصُبْحٍ وَمَا الإصباحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ »[31].

فقد نشأ عن وحدة القافية في صدر كل بيت وعجزه إيقاع صوتي اشتركت فيه الأبيات.

ومن الأمثلة قول الشّماخ: «

ألا نَادِيَا أظعانَ لَيْلَى تُعَرِّجِ ... فقد هَجْنَ شوقاً ليتُه لَمْ يُهَيَّجِ

ثم أتى بأبيات وقال:

ألا ادْلَجَتْ لَيْلاكَ من غير مُدْلِجٍ ... هَوَى نَفْسِها إذا أَدْلَجَتْ لم تُعَرِّجِ »[32].

يقول "قدامة" في التّصريع: « إنما يذهب الشّعراء المطبوعون المجيدون إلى ذلك لأنّ بنية الشّعر إنّما هي التّسجيع والتّقفية، فكلّما كان الشّعر أكثر اشتمالا عليه كان أدخل له في باب الشّعر وأخرج له عن مذهب النثر»[33]. فالتّصريع الذي اعتبره قدامة من الصّفات التي يحكم من خلالها بجودة الشّعر، يعمل على تماسك أجزاء البيت، وأبيات القصيدة من خلال الإيقاع الصّوتي الذي يحدثه في بنية الشّعر.

تضمّن كتاب نقد الشّعر بابا يذكر فيه قدامة عيوب القوافي، ومن ذلك:

8/ الإقواء: وهو: « أن تكون قافية مرفوعة مثلا، وأخرى مخفوضة(...)مثل ما قال سحيم بن وثيل الرّياحي:

عذرت البزل إن هي خاطرتني ... فما بالي وبال ابن اللبون
وماذا يبتغي الشّعراء مني ... وقد جاوزت حد الأربعين.

فنون الأربعين مفتوحة، ونون اللبون مكسورة »[34]، وبهذا يمكن للسّامع أن يحسّ انكسارا وتغييرا في الإيقاع الذي الأصل فيه أن يكون واحدا، فيفقد البيتان ارتباطهما، وإن كانا من القصيدة ذاتها ولهذا قد صّنف قدامة الإقواء من الصّفات التي يعاب عليها الشّعر.

وقال جرير: «

عرين من عرينة ليس منا ... برئت إلى عرينة من عرينِ
عرفنا جعفراً وبني عبيد ... وأنكرنا زعانف آخرينَ »[35].

فالأمر ذاته وقع في بيتي جرير، حيث فقد الشّعر بنيته المتماسكة التي تضمّن القافية الصحيحة وحدتها، والقافية من الأمور التي اعتبرها علماء النص أساسا في اتساق النصوص الشعرية خاصة؛ حيث تقول عزة شبل محمد: «سنعرض لعنصري الوزن والقافية باعتبار أنهما عنصران صوتيان يلعبان دورا في الرّبط الصّوتي على مستوى الشّعر »[36].

9/ السّناد: وهو: « أن يختلف تصريف القافية، كقول الفضل بن العباس اللهبي:

عبد شمس أبي فإن كنت غضبى ... فاملئي وجهك المليح خموشا
نحن كنا سكانها من قريش ... وبنا سميت قريش قريشا»[37].

فالسّناد هو إخلال بالوزن الصرفي للقافيّة بين البيت والأخر في القصيدة ذاتها وقد صنّفه قدامة من العيوب لأنه يخلّ بالوحدة التي تنشأ عن القافية.

وعليه فالإقواء والسّناد من العيوب التي تلحق القافية، ويعاب لأجلها الشّعر، كما يمكن اعتبارهما من العوامل التي تحول دون تماسك أبيات القصيدة، وتسقط عن الشّعر

صفة النّصيّة لما تحدثه من خلل وانكسار على المستوى الصوتي للنصوص الشعرية وهو ما أشارت إليه اللسانيات النصية الحديثة التي تعتبر الربط الصوتي من أسس الاتساق.

10/المطابق والمجانس: يقول قدامة بن جعفر في تقديمه للمطابق والمجانس: « وقد يضع النّاس من صفات الشّعر: المطابق والمجانس، وهما داخلان في باب ائتلاف اللّفظ والمعنى، ومعناهما أن تكون في الشّعر معان متغايرة قد اشتركت في لفظة واحدة وألفاظ متجانسة مشتقة »[38]، فالمطابق والمجانس عند قدامة يمثّلان الجناس الذي يعرِّفه البلاغيون بأنه : « تشابه اللّفظين في النّطق واختلافهما في المعنى ، ويقال له التّجنيس والتّجانس، والمجانسة، وهو زينة لفظيّة بديعة تجذب السّامع إلى ما يقصده المتكلم »[39]، و قد اعتبر علماء النّص الجناس من الرّوابط الصّوتيّة، ذلك أنّ اللّفظ يتكرّر في المواضع المختلفة من النّص، فيحس السّامع بالحروف ذاتها تتكرر، فيدرك بذلك أنّ منتج النّص يسعى لربط أجزاء نصه –بعضها ببعض- عن طريق هذه الظّاهرة البلاغيّة، وقد اعتبرها قدامة من محاسن الشّعر التي يستحسن لأجلها.

ويعرّف قدامة المطابق بقوله: « فأمّا المطابق فهو ما يشترك في لفظة واحدة بعينها، مثل «قول زياد الأعجم:

ونبئتهم يستنصرون بكاهل ... وللؤم فيهم كاهل وسنام

وقال الأفوه الأودي:

وأقطع الهوجل مستأنساً ... بهوجل عيرانة عنتريس »[40].

حيث تعني كاهل في البيت الأوّل الرّجل كبير السّن، وكاهل الثّانيّة الظّهر، أما الهوجل في البيت الثّاني، فتعني الأوّلى الأرض، وتعني الثّانيّة الناقة؛ فالمطابق والمجانس عند قدامة بن جعفر من صفات الحسن والجودة في الشّعر، وهي من الظّواهر الصّوتيّة التي يتحقّق من خلالها الاتّساق، ذلك أن السّامع يجد صلة بين المواضع التي ذكرت فيها الألفاظ المتجانسة، وهو ما أشار إليه علماء النّص في محور الرّبط الصّوتي.

وعليه؛ فوسائل الرّبط الصّوتي من وزن وقافية وجناس وسجع، اعتبرها قدامة من نعوت الشّعر ومحاسنه، واعتبر الإقواء والسّناد من العيوب التي يردّ لأجلها الشّعر، ذلك أنّها ظواهر تخلُّ بوحدة القافية، وتفسد التّرابط الذي تضمّنه. وقد أشارت "عزّة شبل محمّد" إلى أهميّة الوسائل الصّوتيّة فقالت: « على هذا؛ فإنّ الوزن والقافية في الشّعر، والسّجع والجناس في النثر، تسهم في الرّبط الصّوتي، خاصّة أن هذه العناصر الموسيقيّة تسير وفق نمط إيقاعي منتظم، سواء في ما مقاطع النّصوص الشّعريّة، أو المقاطع النثريّة »[41]، وهذا إشارة إلى الوحدة

الصّوتيّة التي تضمّنها هذه الوسائل، والتي تمكن السّامع أو القارئ من إدراك تماسك النّص من عدمه.

ثالثا: مظاهر الانسجام في كتاب نقد الشعر

تتمثّل أهم مظاهر الانسجام في كتاب "نقد الشعر" فيما يلي:

1/ صحة التّفسير: وفي هذه الظّاهرة يقول "قدامة بن جعفر": « وهي أن يضع الشّاعر معاني يريد أن يذكر أحوالها في شعره الذي يصنعه، فإذا ذكرها أتى بها من غير أن يخالف معنى ما أتى به منها، ولا يزيد أو ينقص »[42]، هذا يعني أن الشّاعر يضمّن شعره معانٍ متعدّدة فإذا ذكرها عليه أن يشرحها وأن يذكر أسبابها، ولا يترك معنى منها دون ربطه بغيره، وهذا ما يوضّحه المثال الذي أورده قدامة: « وهو قول الفرزدق:

لقدْ جئتُ قوْماً لو لجأتَ إليهمُ ... طريدَ دمٍ أو حامِلاً ثقلَ مغرمِ

فلما كان هذا البيت محتاجاً إلى تفسير، قال:

لألفيتَ فيهمْ مطعِماً ومطاعِناً ... وراءَك شزْراً بالوشيجِ المقومِ

ففسّر قوله: حاملاً ثقل مغرم: بأنّه يلقى فيهم من يعطيه، وفسّر قوله: طريد دم بقوله: إنّه يلقى من يطاعن دونه ويحميه »[43]، ففي شرح قدامة بن جعفر للبيتين إشارة إلى الطّريقة ارتبطت بها المعاني المكوّنة لهما؛ حيث جاء البيت الثّاني كتفسير للبيت الأوّل، وهو ما تدل عليه الجملة " فسّر قوله حاملا ثقل مغرم بقوله أن يلقى فيهم من يطاعن دونه ويحميه، والتفسير الذي تحدث عنه قدامة بن جعفر قديما لا يختلف عن علاقة السببةالتي هي من معايير النصية في لسانيات النص حديثا.

2/ التّتميم: وفيه يقول "قدامة بن جعفر": « وهو أن يذكر الشّاعر المعنى فلا يدع من الأحوال التي تتمّ بها صحّته وتكمل معها جودته شيئا إلا أتى به »[44]، فالتّتميم هو أن يضيف الشّاعر إلى المعنى المقصود معان تكتمل بها صحته وتزيد جودته. ومثال ذلك قول عمير بن الأيهم التّغلبي: «

بها نلنَا القرائبَ من سوَانا ... وأحرزنَا القرائبَ أن تنالا

فالذي أكمل جودة هذا البيت قوله: "وأحرزنا القرائب أن تنالا"، مع أنهم القرائب من سواهم »[45]، فالشّاعر أراد أن يفاخر فقال " نلنا القرائب من سوانا" وحتّى تكتمل جودة المعنى أضاف قوله " أحرزنا القرائب أن تنالا" وربط المعنيين بـ(و) التي أشار علماء النّص إلى أنها تربط

القضايا المتعلّقة بالموقف ذاته، والربط بين القضايا من العناصر التي اعتبرها علماء النص المحدثون أساسية في انسجام النص وهو ما يشير إليه **فان دايك** اليوم بقوله: « ترتبط القضيتان من خلال أداة الرّبط "و"، ويتبيّن أنّ القضيّة الأوّلى تحدّد على نحو يعيّنه الموقف الذي يجب أن تفسّر القضيّة الثّانيّة من خلاله »[46]. ومن الأمثلة:« قول النمر بن تولب:

لقدْ أصبحَ البيضُ الغوانِي كأنمَا ... يرينَ إذا ما كنتَ فيهنَّ أجربَا
وكنتُ إذا لا قيتهنَّ ببلدةٍ ... يقلنَ على النكراءِ أهلاً ومرحبَا

فقوله: على النّكراء، أتم جودة المعنى، وإلا فلو كانت بينهم معرفة، لم ينكر أن يقلن له أهلاً ومرحباً »[47]، حيث ربط الشّاعر المعنى في البيت الأوّل (أصبحت النساء تنفر منه وتستوحش منظره) بالمعنى في البيت الثّاني (كانت النّساء تحييه مع أنهن لا يعرفنه) واعتمد في ذلك أداة الرّبط (و) لأنّ المعنى الأوّل والثّاني متعلقان بالموقف نفسه، وبهذا تحقّق التّرابط بين البيتين.

3/ الالتّفات: يعتبره قدامة من محاسن الشّعر، ويعرّفه بقوله: « وهو أن يكون الشّاعر آخذاً في معنى فكأنه يعترضه إما شكّ فيه أو ظن بأن راداً يرد عليه قوله، أو سائلاً يسأله عن سببه، فيعود راجعاً على ما قدّمه، فإما أن يؤكده أو يذكر سببه أو يحل الشّك فيه »[48]، فالالتّفات: أن يذكر الشّاعر معنى ما ويجد نفسه ملزما بتفسيره، وذكر سببه، وبهذا يحتاج الإتيان بمعنى آخر يؤكّد به المعنى الأوّل الذي ذكره، ومثال ذلك « قول المعطّل:

تبينُ صلاةُ الحرب منا ومنهمُ ... إذا ما لتقينا والمسالمُ بادنُ

فقوله: "والمسالم بادن"، رجوع إلى المعنى الذي قدّمه حين بيّن أنّ علامة صلاة الحرب من غيرهم أنّ المسالم يكون بادناً والمحارب ضامراً »[49]، فقد احتاج الشّاعر إلى ذكر معنى آخر وهو" المسالم بادن" حتّى يزيل شكّ السّامع، ويبيّن سبب قوله "تبين صلاة الحرب"، وقد تماسك المعنيان كون الثّاني هو تفسير للأوّل، أو أنّ المعنى الأوّل وقع بسبب المعنى الثّاني، وهو العنى ذاته الذي أراد علماء النص حديثا؛ يقول فان دايك: « وبذلك نكون قد وقفنا على معيار من المعايير العامّة التي تحدّد ربط الوقائع، وهو علاقة السّببيّة، إذ ترتبط الواقعتان (أ) و (ب) ببعضهما بعض ارتباطا سببيا، حين يكون (أ) سببا أو تعليلا لـ (ب)، ولذا تكون (ب) نتيجة لـ (أ)»[50].

أفرد قدامة بن جعفر بابا في كتابه لذكر المعاني التي يدلّ عليها الشّعر، وهي ما يعرف بأغراض الشّعر حيث يقول: « جماع الوصف لذلك أن يكون المعنى موجّها للغرض المقصود، غير عادل عن الأمر المطلوب[51] »، وهو بهذا يشير إلى أن الشّاعر ينظم شعره لغرض معيّن لا يخرج عنه، أو لمعالجة فكرة دون غيرها، وهو ما يعرف بموضوع الخطاب، ذلك أنّ هذا الغرض الذي يقصده الشاعر ستتمحور حوله كل أبيات القصيدة وتشترك فيه. ثم ينتقل قدامة إلى ذكر أشهر وأبرز الموضوعات التي يتكلّم فيها الشّعراء فيقول: « وأن أجعل ذلك في الأعلام من أغراض الشّعراء، وما هم عليه أكثر حوما، وأشدّ روما، وهو: المديح، والهجاء، والنّسيب، والمراثي، والوصف، والتّشبيه »[52]؛ فقوله "وما هم عليه أكثر حوما" إشارة إلى أن الشّاعر يختار موضوعا دون سواه، فيجعله محور حديثه، وموضوع شعره، وهو تقدم ذكره في معنى موضوع الخطاب.

خاتمة :

تعد لسانيات النص فرعا من أهم فروع علم اللغة، موضوعها الأساسي "النص" ، وتقوم على سبعة معايير حددها "دي بوغراند هي: الاتساق، الانسجام، القصدية، المقبولية، الموقفية، التناص، الإعلامية.

اختار قدامة بن جعفر في كتابه عددا من النصوص الشعرية ثم قام بدراستها وبيّن جيدها من رديئها بناء على مجموعة من العوامل التي رأى أنّ الشعر الذي تضمّنها هو شعر جيد.

بعد معرفة معايير النصية لـ "دي بوغراند" ثم الرجوع إلى كتاب نقد الشعر يمكن القول إنّ" قدامة بن جعفر" قد اعتمد على معايير علمية في نقده وحكمه على الشعر.

تتمثل مظاهر الاتساق عند "قدامة بن جعفر" في كتابه "نقد الشعر" في : المبالغة، التكافؤ، الإشارة، التمثيل، الوزن، التمثيل، الترصيع، الإقواء، السناد، المطابق والمجانس.

تتمثل مظاهر الانسجام عند "قدامة بن جعفر" في صحة التفسير والالتفات والتتميم.

يمكن الإشارة إلى أن المعايير النصية التي يعتمدها اللسانيون اليوم في معرفة مدى نصية الأعمال اللغوية، قريبة إلى حد كبير من العوامل والعناصر التي اعتمدها قدامة بن جعفر قديما في التفريق بين جيد الشعر ورديئه.

إن النقد الأدبي القديم لم يقم كله على الذوق أو الميولات النفسية للناقد إنما قام على أسس علمية وقواعد يمكن للباحث أن يلمسها في الكثير من المؤلفات.

الهوامش

[1] صبحي إبراهيم الفقي: علم اللغة النّصي بين النظرية والتطبيق، دار قباء للطباعة، القاهرة، ط1، 2000، ص 35.

[2] المرجع نفسه: ص 103.

[3] قدامة بن جعفر: نقد الشّعر، تحقيق: عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية ، لبنان، ص 146.

[4] المرجع نفسه: ص 146.

[5] المرجع نفسه: ص 146.

[6] عمر أبو خرمة: نحو النّص نقد نظريّة وبناء أخرى، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2004، ص 83.

[7] قدامي بن جعفر: نقد الشعر، ص 148.

[8] المرجع نفسه: ص 148.

[9] المرجع نفسه: ص 148.

[10] المرجع نفسه: ص 154.

[11] المرجع نفسه: ص 155.

[12] أحمد القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبنانين، بيروت، ط2، 1980، ص 308.

[13] براون ويول: تحليل الخطاب، ترجمة: محمّد لطفي الزليطي ومنير التّريكي، جامعة الملك سعود، الرّياض، دط، 1997، ص36.

[14] عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري: التيجان في ملوك حمير، تحقيق: مركز الدراسات والأبحاث اليمنيّة، صنعاء، ط1، 1347 هـ، ص 419.

[15] قدامة بن جعفر: نقد الشّعر، ص 159.

[16] عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 2001، ص 81.

[17] قدامة بن جعفر: نقد الشّعر، ص 161.

[18] المرجع نفسه: ص 165.

[19] المرجع نفسه: ص165.

[20] عزّة شبل محمّد: المرجع السّابق، ص 114.

[21] المرجع نفسه: ص 78.

[22] عبد العزيز عتيق: علم العروض والقافية، دار النهضة العربيّة، بيروت، دط، 1987، ص 12.

[23] قدامة بن جعفر: المرجع السّابق، ص 187.
[24] المرجع نفسه: ص 79.
[25] المرجع نفسه: ص 80.
[26] المرجع نفسه: ص 83.
[27] المرجع نفسه: ص 83.
[28] اسماعيل بن أبي بكر المقري: كتاب العروض والقوافي، شرح: يحي بن علي يحي البكري، دار النشر للجامعات، القاهرة، ط1، 2009، ص 65.
[29] رزيق بوزغايّة: ورقات في لسانيات النّص، منشورات المثقف، باتنة، الجزائر، ط1، 2018، ص75.
[30] قدامة بن جعفر: نقد الشّعر، ص 86.
[31] المرجع نفسه: ص 86.
[32] المرجع نفسه: ص 83.
[33] المرجع نفسه: ص 90.
[34] المرجع نفسه: ص 181.
[35] المرجع نفسه: ص 182.
[36] عزّة شبل محمّد: علم لغة النّص النظريّة والتّطبيق، ص 127.
[37] قدامة بن جعفر: نقد الشعر، ص 183.
[38] المرجع نفسه: ص 162.
[39] محمّد ألتنوخي: الجامع في علوم البلاغة، ص 198.
[40] قدامة بن جعفر: المرجع السّابق، ص 163.
[41] عزّة شبل محمّد: علم لغة النّص النظريّة والتّطبيق، مكتبة الآداب، القاهرة، ط2، 2009، ص 127.
[42] قدامة بن جعفر: نقد الشّعر، ص 142.
[43] المرجع نفسه: ص 143.
[44] المرجع نفسه: ص 144.
[45] المرجع نفسه: ص 144.
[46] تون فان دايك: علم النّص مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة: سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، ط1، 2001، ص ص 56.
[47] قدامة بن جعفر: نقد الشعر، ص 146.
[48] المرجع نفسه: ص 150.
[49] المرجع نفسه: ص 150.
[50] تون فان دايك: علم النّص مدخل متداخل الاختصاصات، ص 55.
[51] قدامة بن جعفر: نقد الشعر، ص 91.
[52] المرجع نفسه: ص 91.

قائمة المصادر والمراجع

1. أحمد القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبنانين، بيروت، ط2، 1980.
2. اسماعيل بن أبي بكر المقري: كتاب العروض والقوافي، شرح: يحي بن علي يحي البكري، دار النشر للجامعات، القاهرة، ط1، 2009.
3. براون ويول: تحليل الخطاب، ترجمة: محمّد لطفي الزليطي ومنير التّريكي، جامعة الملك سعود، الرّياض، دط، 1997.
4. تون فان دايك: علم النّص مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة: سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، ط1، 2001.
5. رزيق بوزغايّة: ورقات في لسانيات النّص، منشورات المثقف، باتنة، الجزائر، ط1، 2018.
6. صبحي إبراهيم الفقي: علم اللغة النّصي بين النظرية والتطبيق، دار قباء للطباعة، القاهرة، ط1، 2000.
7. عبد العزيز عتيق: علم العروض والقافية، دار النهضة العربيّة، بيروت، دط، 1987.
8. عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 2001.
9. عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري: التيجان في ملوك حمير، تحقيق: مركز الدراسات والأبحاث اليمنيّة، صنعاء، ط1، 1347 هـ.
10. عزّة شبل محمّد: علم لغة النّص النظريّة والتّطبيق، مكتبة الآداب، القاهرة، ط2، 2009.
11. عمر أبو خرمة: نحو النّص نقد نظريّة وبناء أخرى، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2004.
12. قدامة بن جعفر: نقد الشّعر، تحقيق: عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية ، لبنان.
13. محمد ألتنوخي: الجامع في علوم البلاغة، دار العزة والكرامة للكتاب، الجزائر، ط1، 2001.